نظرات ابن جني في الصوت والمعنى
ـ الخصائص ـ انموذجاً

م.م. حيدر جبار عيدان
جامعة الكوفة / كلية الآداب

فطن علماء العربية القدامى . رحمهم الله . الى دراسة الصوت اللغوي منذ القدحة الاولى للتأليف في اللغة ، ومصداق ذلك نجده عند الخليل (١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (١٨٠هـ) [x] وتبعهم من جاء بعدهم من العلماء ، وقد برز في القرن الرابع الهجري (ابن جني ٣٩٢هـ) و (ابن فارس ٣٩٥هـ) [xi] ولم يفرط ابن جني (٣٩٢هـ) بما جاء به السلف من أئمة اللغة لا سيما قضايا اللغة ومسائلها وقد تعمق في دراستها واستطاع ان يوصل لنا نظرياتهم ولم يتركها دون تحليل أو تعليل وما تنطوي عليه من اسرار ،

الحق ان العلاقة بين اللفظ (الصوت) والمعنى نالت اهتمام اللغويين واصبحت حجر الزاوية في علم الدلالة ، ومحاولة ابن جني في اقامة جسر من العلاقة بين اللفظ ومدلوله ، استمدها من علماء اللغة الاقدمين كما سيأتي بيانه،

وابن جني في هذه النظرية اقرب الى الاعتدال من غيره من علماء العربية في وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى ، اذ يرى بعضهم (عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي) ان المناسبة ذاتية وكان هذا مذهبهم في نشأة اللغات بوجه عام ، وقد اوضح السيوطي عدم رضى بعض علماء اللغة على هذا المذهب عندما يذكر ان اهل اصول الفقه نقلوا عن الصيمري رأيه بقوله ((أن بين اللفظ ومدلوله(مناسبة طبيعية)حاملة للواضع على أن يضع ،، قال : والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح، وكان بعض من يرى رأيه يقول إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل ما مسمى (اذغاغ) وهو بالفارسية

الحجر فقال : أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر ، وأنكر الجمهور هذه المقالة وقال لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ولما صح وضع اللفظ للضدين كالقرء للحيض والطهر والجون للأبيض والأسود وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار خصوصا إذا قلنا الواضع هو الله تعالى فإن ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقت دون وقت))[XII]،

وقد تنبه السيوطي لما في رأي عباد الصيمري من مبالغة فانتصر لرأي ابن جني ، بقوله((وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عبادا يراها ذاتية موجبة بخلافهم وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوبا وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح لكن فضلا منه ومنا لا وجوبا ولو شاء لم يفعله))[XIII] ،

وكتاب الخصائص يحوي من اسرار العربية وميزاتها ما يسعف الباحث والمتعلم في قضايا اللغة وأسرارها وما لاغنى لواحد عنه وابن جني في ثنايا كتابه يقول ((فإن هذا الكتاب ليس مبنيا على حديث وجوه الإعراب وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام وكيف بدئ والام نحى وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهاء والمتفلسفين والنحاة والكتاب والمتأدبين التأمل له والبحث عن مستودعه فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ويأنس به ليكون له سهم منه وحصة))[XIV] ،

والمتأمل في كتاب الخصائص يجد ان صاحبه من اللغويين المتحمسين لفكرة الصلة بين اللفظ والمدلول ، وتصور ابن جني لهذه الفكرة ينطلق من رأيه المؤيد لفكرة المواضعة في نشأة اللغة [XV] وبسط مسألة الصلة بين الصوت والمعنى ، واخذ على عاتقه تفصيل دقائقها واستدل على عناية العرب بالاصوات بما سمي بصوته عندهم كالبط لصوته ، والواق للصرد لصوته أيضا وغاق للغراب وهكذا [XVI] ، على انه في بعض الاحيان يلاحظ ابتعاد المعنى عن الصوت حتى انك لو ذهبت تلتمس الجامع بينهما لأدى بك ذلك الى التعسف في التأليف

والتوفيق ، ومرد ذلك عنده الى خفاء العلاقة بسبب بعدها في الزمن ((لأن لهذه اللغة أصولا واوائل قد تخفى عنا وتقصر اسبابها دوننا)) [XVII] ومثل لخفاء التسمية بقولهم في الانسان الذي يرفع صوته : قد رفع عقيرته ، فالجامع بين معنى الصوت ومعنى (ع ق ر) غير متيسر ولو حاولته لتكلفت وتعسفت لأن أصله ((ان رجلا قطعت احدى رجليه فرفعها ووضعها على الاخرى ثم صرخ باعلى صوته فقال الناس رفع عقيرته)) [XVIII] كما ان البعد الذي نراه بين الصوت والمعنى آتيا من ضعف في نظر الدارس وقعوده بفكره عن ان ينال الجمع بينهما [XIX] وقد عقد للمناسبة بين الصوت والمعنى فصولا اربعة في كتابه (الخصائص) متلمسا هذه الصلة فيما يعرض له من ظواهر معتمدا على قوة في التصريف أورثته دقة النظر في الاصوات وجرس الحروف طبع في ذهنه دلالات خاصة طوال مخالطته اياها وكثرة تعامله بها ومعها وهذه الابواب التي عقدها في كتابه هي :

١ . تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني ،

٢. الاشتقاق الاكبر ، وان كنا نعتقد ان صلته بالظاهرة غير قوية فانه بفكرة التقاليب التي تدور حول معنى واحد بلطف الصنعة والتأويل يعطى مؤشرا ولو من بعيد على ولع ابن جني بفكرة المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، وما يدعم ذلك ان ابن جني يصرح : بان التقديم والتأخير في تقليب الاصول نحو (ك ل م) و (ك م ل) و (م ل ك) [XX] بوجه من الوجوه يقع تحت ما يسميه تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني فهو يقول ان معنى (ق و ل) اين وجدت وكيف وقعت من تقدم حروفها على بعض وتأخيره عنه انما هو للخفة والحركة [XXI] ،

٣. تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني ،

٤. امساس الالفاظ اشباه المعاني،

٥. تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني ،

يقصد ابن جني بهذه التسمية الألفاظ المترادفة التي لم نجد قبله . في حدود علمنا . من اطلق هذه التسمية على الالفاظ المترادفة،

وقد جعل ذلك بابا من ابواب كتابه الخصائص ، قال فيه : ((هذا فصل من

العربية حسن كثير المنفعة قوي الدلالة على شرف هذه اللغة وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفضى المعنى إلى معنى صاحبه)) [xxii] ، فالالفاظ متقابلة في المعنى مختلفة في اللفظ ، ضرب لها ابن جني امثلة منها :

الخليقة (خ ل ق) ، والطبيعة (ط ب ع) ، و النحيتة(ن ح ت) ، و الغريزة (غ ر ز)، و النقيبة (ن ق ب) ، والضريبة (ض ر ب) ، و النحيزة (ن ح ز) ، و السجية (س ج و) ، والطريقة (ط ر ق) ، والسجيحة (س ج ح) والسليقة (س ل ق) ،فاصول هذه الالفاظ تختلف لما وضعناه امام كل واحدة منها ، أما معانيها فمتلاقية يؤيد ذلك رجوعنا الى المعاجم اللغوية في دلالة هذه الكلمات.

(الخليقة)

و الخلِيقة: الخلق و الخلائق، يقال: هم خلِيقة الله ، والخلق: الناس، و الخلِيقة: البهائم، وقيل: هما بمعنى واحد ويريد بهما جميع الخلائق، و الخلِيقة: الطبِيعة التي يخلق بها الإِنسان [xxiii] ، و خلق الانسان سجيته [xxiv]،

(الطبيعة)

الطبع، والطبيعة، والطباع، ككتابٍ: السجِية جبِل عليها الإنسان ، فهي من طبعت الشيء أي قررته على امر ثبت عليه ، كما يطبع الشيء كالدينار والدرهم فتلزمه اشكاله ولا تفارقه [xxv] ،

(النحيتة)

النحِيتة: الطبيعة التي نحِت عليها الإِنسان أي قطِع، وهي الطبيعة والأصل، والكرم من نحتِه أي أصلِه الذي قطع منه، ومنه إِنه لكريم الطبيعة و النحِيتة والغريزة، بمعنى واحد، فهي الحالة التي نحت عليها الانسان ، كالغريزة التي غرز عليها [xxvi] ،

(الغريزة)

فعيلة من غرزت ، ويقال لها طبيعة ، لأن طبع الدرهم ونحوه ضرب من وسمه وتغريزه ، والطبيعة غريزة ، كأنها شيء غرز في الانسان [xxvii].

(النقيبة)

الطبيعة؛ وقيل الخليقة، و النقِيبة: يمن الفعل ، ورجل ميمون النقِيبة: مبارك النفسِ، مظفر بما يحاول؛ قال ابن السكيت؛ إذا كان ميمون الأمرِ ينجح فيما حاول ويظفر؛ وقال ثعلب: إذا كان ميمون المشورة و النقِيبة، والنقِيمة، والطبِيعة، بمعنى واحد ، و النقيبة: النفس، والعقل، والمشورة، ونفاذ الرأي[XXVIII]،

(الضريبة)

والضريبة: ما ضريته بالسيفِ ، و الضريبة: المضروب بالسيف، وإنما دخلته الهاء، وإن كان بمعنى مفعول، لأنه صار في عِدادِ الأسماءِ، كالنطيحةِ والأكيلة، [XXIX] ، و الضرِيبة: الخلِيقة، يقال: خلِق الناس على ضرائِب شتى، ويقال: إنه لكريم الضرائِبِ،[XXX] ، والضريبة: الطبيعة، يقال: إنه لكريم الضرائبِ، والضريبة: كل شيءٍ ضريته بسيفِك من حيّ أو ميتٍ[XXXI] ،

(النحيزة)

النحِيزة: الطبيعة، و النحِيتة و النحائِز: النحائت، قال الأزهري: نحِيزة الرجل طبيعته وتجمع على النحائِز[XXXII] ، و النحِيزة: طريقة من الرمل سوداء ممتدة كأنها خط، مستوية، مع الأرض خشِنة[XXXIII] ،

(السجية)

يقال : سجا الليل ، اذا ادلهم وسكن ، والسجية : الخلق والطبعية[XXXIV] ، لأن خلق الانسان امر قد سكن اليه واستقر عليه[XXXV] ،

(الطريقة)

والطريقة من خلقِ الإنسانِ: لِين وانقِياد، والطرقة بمنزِلةِ الطريقةِ من طرائقِ الأشياءِ المطارقِ، بعضها على بعضٍ من وشيٍ أو بناءٍ أو غير ذلك ،[XXXVI]

(السجيحة)

السجِيحة السجِية والطبيعة ، يقال ركب فلان سجِيحة رأسه وهو ما اختاره لنفسه من الرأي فركبه،[XXXVII] ،

ويقال: بنى القوم بيوتهم على سجحٍ واحد، وعلى سجِيحةٍ واحدة، أي على

قدرٍ واحد،[xxxviii] قال ابن جني ((وذلك ان الطبيعة قد قرت واطمأنت فسجحت وتذللت ، وليس على الانسان من طبعه كلفة ، وانما الكلفة فيما يتعاطاه ويتجشمه)) [xxxix] ،

(السليقة)

السليقة: الطبيعة، ويجمع سلائِق[xl] ، ويقال فلان يتكلم بالسليقة ، أي بطبعه [xli] ،

ولخص ابن جني علاقتها بالنحيته حين ذكر((أنها كالنحيتة وذلك أن السليق ماتحات من صغار الشجر ... وذلك أنه إذا تحات لان وزالت شدته ، والحت كالنحت وهما في غاية القرب ومنه قول الله سبحانه ((سلقوكم بألسنة حداد))[xlii] أي نالوا منكم وهذا هو نفس المعنى في الشيء المنحوت المحتوت ألا تراهم يقولون فلان كريم النجار والنجر أي الأصل والنجر والنحت والحت والضرب والدق والنحز والطبع والخلق والغرز والسلق كله التمرين على الشيء وتليين القوى ليصحب وينجذب)) [xliii] ثم يعقب ابن جني على كلامه منبها على ما في العربية من اسرار وكيف هدى الله البشر في التواضع عليها فيقول: ((فاعجب للطف صنع الباري سبحانه في أن طبع الناس على هذا وأمكنهم من ترتيبه وتنزيله وهداهم للتواضع عليه وتقريره)) [xliv]،

فكل هذه المعاني السابقة يؤدي بعضها الى بعض أو يتلاقى بعضها مع بعض ، ولكن الالفاظ قد استعملت في معنى واحد ، حتى عدت من المترادفات احيانا ، كما في قول أصحاب المعاجم ((النقِيبة، والنقِيمة، والطبِيعة، بمعنى واحد)) [xlv] ،

وقد ضرب ابن جني أمثلة اخرى لهذه النظرية التي تكون فيها معاني الكلمات المتقاربة في اصل وضعها مؤدية بعضها الى بعض ،

من ذلك (المسك) من الطيب و (الصوار) القطعة من المسك ، فالأول من (م س ك) والثاني من (ص و ر) الدالة على معنى الميل والانعطاف ، ومنه قوله تعالى((فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك)) [xlvi] ، أي وجههن ، يقال : صر الي

وصر وجهك الي ، أي اقبل علي[xlvii]، و(صوار) فعال من صاره يصوره ، اذا أماله وعطفه وثناه ، وانما قيل له ذلك لأنه يجذب حاسة من يشمه اليه وكذلك نجد أيضا معنى المسك وذلك انه (فعل) من امسكت الشي كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ولا يعدل بها صاحبها عنه فقولهم اذا مسك يلاقي معناه معنى الصوار وان كانا من اصلين مختلفين وبناءين متباينين [xlviii] ،

يبدو ان ابن جني قد تكلف في هذا المثال وتعسف على اللغة ، فالصوار في معاجم اللغة ((وعاء المسك)) [xlix] ، وذكرت المعاجم ايضا انه ((ريح المسك)) [l] ، لا المسك نفسه ، كما يرى ابن جني ،

ومما ذكره ابن جني من الامثلة على تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني :

قولهم : صبي وطفل وغلام وجارية فتلك كلمات أصولها مختلفة : لأنها من (ص ب و) و(ط ف ل) و(غ ل م) و(ج ري) ومع هذا فتدل على معنى عام هو اللين والميل والانجذاب[li]،

ويمكننا الرجوع الى معاجم اللغة لتوضيح ذلك :

فـ(صبا) الى الشيء يصبو اذا مال قلبه اليه [lii] ،

و(طفل) من طفل الليل اذا اقبل ظلامه وتطفيل الشمس ميلها الى الغروب و الطفل بعد العصر اذا طفلت الشمس للغروب [liii] ،

(غلام) من الغلمة وهي اللين وضعف العصمة [liv] ،

(جارية) فاعلة من جرى الماء وغيره [lv] ،

والمعنى الجامع لهذه الجذور كما ذكر ابن جني ((أن الطفل والصبي والغلام والجارية ليست لهم عصمة الشيوخ ولا جسأة الكهول)) [lvi] ،

وكذلك ذكر : جمل وناقة ودبيج (في قولهم ما بالدار دبيج) والوشاء في قولهم تناسل عليه الوشاء) فهذه ألفاظ متباينة أصولها اذ هي من (ج م ل) و(م وق) و(د ب ج) و (وش ي).

وهي في معاجم اللغة متقاربة في معانيها اذ ترجع في النهاية الى الحسن

والجمال والتأنق.

(جمل)

الجمال، وهو ضد القبح، ورجل جميل وجمال؛ قال تعالى (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين يسرحون)[lvii] وهو البهاء والحسن[lviii] قال ابن قتيبة: أصله من الجميل وهو وذك الشحمِ المذابِ، يراد أن ماء السمنِ يجري في وجهه،[lix] ،

و (ن وق)

الناقة: الأنثى من الإبل،[lx] ، قال ابن فارس ((النون والواو والقاف أصل يدل على سمو وارتفاع، وأرفع موضع في الجبل نِيق، والأصل الواو، وحولت ياء للكسرة التي قبلها؛ وقولهم: تنوق في الأمر، إذا بالغ فيه، فعندنا أنه منه، وهم يشبهون الشيء بما يستحسنونه... تنوق مقيس على اسم الناقة، وهي عندهم من أحسنِ أموالهم))[lxi] ،

و (د ب ج)

الديباج: ضرب من الثياب، مشتق من ذلك، بالكسر والفتح، والجمع ديابِيج و دبابيج، قال ابن جني: قولهم دبابيج يدل على أن أصله دِباج، وأنهم إنما أبدلوا الباء ياء استثقالا لتضعيف الباء، وكذلك الدينار، والقيراط، وكذلك في التصغير[lxii] .

و(وش ي)

جاء في اللسان: الوشي من الثياب معروف، والجمع وشاء على فعلٍ وفِعالٍ[lxiii] ، وقال ابن فارس ((الواو والشين والحرف المعتل أصلانِ: أحدهما يدل على تحسينِ شيءٍ وتزيينه، والآخر على نماءٍ وزيادة..))[lxiv] ، ثم يقول ابن جني ((وعلى ذلك قالوا (الغنم) لأنه من الغنيمة كما قالوا لها الخيل لأنها فعل من الاختيال وكل ذلك مستحب أفلا ترى إلى تتالى هذه المعاني وتلاحظها وتقابلها وتناظرها وهي التنوق والجمال والديباج والوشي والغنيمة والاختيال))[lxv] ،

ومن ذلك أيضا الفضة واللجين فهما كلمتان بمعنى واحد اذ يطلقان على المعدن وهما يتلاقيان في المعنى ويؤدي احدهما الاخر في معاجم اللغة ،

(ف ض ض)

فضض : فضضت الشيء أفضه فضا، فهو مفضوض و فضِيض: كسرته وفرقته[lxvi]،

و الفضة: الصخر المنثور بعضه فوق بعض، وجمعه فِضاض، و تفضض القوم و انفضوا: تفرقوا، والاسم الفضض، و تفضض الشيء: تفرق، و الفض: تفريقك حلقة من الناس بعد اجتماعهم، يقال: فضضتهم فانفضوا أي فرقتهم[lxvii]

(ل ج ن)

اللجين، بفتح اللام وكسر الجيم: الخبط، وذلك أن ورق الأراك والسلم يخبط حتى يسقط ويجِف ثم يدق حتى يتلجن أي يتلزج ويصير كالخِطمي، وكل شيء تلزج فقد تلجن، وهو فعيل بمعنى مفعول، وناقة لجون: حرون[lxviii] ،

و اللجين: الفضة، لا مكبر له جاء مصغرا مثل الثريا والكميتِ؛ قال ابن جني: ينبغي أن يكون إنما ألزموا التحقير هذا الاسم لاستصغار معناه ما دام في تراب معدنه فلزمه التخليص[lxix] ،

فقد ظهرت العلاقة واضحة بين الفضة واللجين على الرغم من تباين أصولها ويشبه ذلك أيضا ما بين الذهب والتبر ، فهما متلاقيان في المعنى على الرغم من تبيان اصولهما ، ونظرة إلى معاجم اللغة تكشف لنا ذلك ،

(ذهـ ب)

وهو ذهاب الشيء: أي مضيه وهلاكه ومنه الذهب لأنه غير مصفى فهو كالذاهب [lxx] ، قال ابن جني((وذلك لأنه ما دام كذلك غير مصفى فهو كالذاهب لأن ما فيه من التراب كالمستهلك له أو لأنه لما قل في الدنيا فلم يوجد إلا عزيزا صار كأنه مفقود ذاهب ألا ترى أن الشيء إذا قل قارب الانتفاء ...، فكذلك لما قل هذا الجوهر في الدنيا أخذوا له اسما من الذهاب الذي هو الهلاك)) [lxxi].

وقال ابن فارس ((الذال والهاء والباء أصيل يدل على حسنٍ ونضارة، من ذلك

الذهب معروف، وقد يؤنث فيقال ذهبة، ويجمع على الأذهاب؛ والمذاهب: سيور تموه بالذهب، أو خِلل من سيوف، وكل شيءٍ مموهٍ بذهبٍ فهو مذهب))[lxxii]،

(ت ب ر)

قال ابن فارس ((التاء والباء والراء أصلان متباعد ما بينهما: أحدهما الهلاك، والآخر (جوهر) من جواهر الأرض))[lxxiii]،

فالأول قولهم: تبر الله عمل الكافرِ، أي أهلكه وأبطله، قال الله تعالى(إن هؤلاء متبر ما هم فيهِ وباطلٍ ما كانوا يعملون)[lxxiv]، والأصل الآخر التبر، وهو ما كان من الذهب والفضة غير مصوغ[lxxv]،

والتبر، بالكسر: الذهب، والفضة، أو فتاتهما قبل أن يصاغا، فإذا صيغا فهما ذهب وفضة، أو ما استخرج من المعدنِ قبل أن يصاغ،[lxxvi]،

ويؤكد ابن جني ما سبق ويستدل بالفاظ اخرى فيقول ((ويدلك على أنهم قد تصوروا هذا الموضع من امتزاجه بتراب معدنه أنهم إذا صفوه وهذبوه أخذوا له اسما من ذلك المعنى فقالوا له: الخلاص والإبريز والعقيان فالخلاص فعال من تخلص والإبريز إفعيل من برز يبرز والعقيان فعلان من عقى الصبي يعقى وهو أول ما ينجيه عند سقوطه من بطن أمه قبل أن يأكل وهو العقى فقيل له ذلك لبروزه كما قيل له البراز))[lxxvii]،

ثم يعقب مؤكدا الصلة بين المعاني لتلك الالفاظ التي قد يظن ترادفها بقوله ((فالتأتي والتلطف في جميع هذه الأشياء وضمها وملاءمة ذات بينها هو خاص اللغة وسرها وطلاوتها الرائقة وجوهرها فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هرجة فنعوذ بالله منه ونرغب بما آتاناه سبحانه عنه))[lxxviii]،

ومن خلال ذلك الحديث نجد ان ابن جني معجب بهذه الفكرة وقد حرص على حث من يأتي بعده لدراستها وتكميلها وتتبع ما بين الألفاظ من معاني ، لأن ذلك يوقفنا على اسرار هذه اللغة ، كما نبه على ان مجال البحث فيها واسع قد لا يكفيه ألف ورقة الا على الاختصار ، يقول ((فهذا ونحوه من خصائص هذه اللغة الشريفة اللطيفة وإنما يسمع الناس هذه الألفاظ فتكون الفائدة عندهم منها

إنما هي علم معنياتها فأما كيف ومن أين فهو ما نحن عليه)) [lxxix] ،

ويقول : ((وقد هممت غير دفعة أن أنشئ في ذلك كتابا أتقصى فيه أكثرها والوقت يضيق دونه ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيماء وكان أبو علي رحمه الله يستحسن هذا الموضع جدا وينبه عليه ويسر بما يحضره خاطره منه وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ وليس كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد فكأن بعضه منبهة على بعض وهذا إنما يعتنق فيه الفكر المعاني غير منبهته عليها الألفاظ فهو أشرف الصنعتين وأعلى المأخذين فتفطن له وتأن لجمعه فإنه يؤنقك ويفئ عليك ويبسط ما تجعد من خاطرك ويريك من حكم الباري عز اسمه ما تقف تحته وتسلم لعظم الصنعة فيه وما أودعته أحضانه ونواحيه)) [lxxx] ،

والمتأمل في كلمات ابن جني يلحظ سعيه الحثيث ليصل الى السر الذي من خلاله وقع الترادف بين الألفاظ في اللغة وكأنه يريد ان يسهم في القضاء على الخلاف الذي يدور في وجود ظاهرة الترادف وعدم وجودها في اللغة ، فنظرة ابن جني تبرز ما في طابع اللغة من تطور وما تميل اليه في تطورها الذي شمل الفاظها ومعانيها فهو يؤكد ان الترادف في العربية ليس عبثا وكأنه نشأ نتيجة التقارب الحاصل بين معاني هذه الألفاظ في أصل الوضع وبتطورها تلاقت واصبحت تستعمل بمعنى واحد.

وقد حث ابن جني الدارسين لأكمال هذه النظرة ومواصلة البحث في هذه الالفاظ واستعمالاتها في اصل وضع اللغة وتطورها حتى وصلت الى ما هي عليه الان من تقارب في الدلالة.

. مناسبة الالفاظ للمعاني

يعقد ابن جني صلة تقابل تلك التي عقدها في (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني) في المظهر لأنها في جوهرها تؤدي الى النتيجة نفسها التي قصدها منها وهي العلاقة التي تصورها بين الصوت ومدلوله ، ففي تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني يجعل الاساس او السبب الاول في تقارب الالفاظ هو ان تقارب

الحروف في معانيها قد جعلها تتقارب في مخارجها ، ولكن في امساس الالفاظ اشباه المعاني يكون السبب في تقارب المعاني هو تقارب اصوات الكلمات أي ان المعاني تتقارب وتتشابه نتيجة لتقارب جرس الحروف.

قال ابن جني في باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني ((اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا (صر) وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا (صرصر) وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو النقزان والغليان والغثيان فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال)) [lxxxi].

لقد نبه ابن جني على ان هذا الموضع فطن له الخليل وسيبويه [lxxxii] وغيرهما من علماء العربية القدامى . رحمهم الله . وهو بهذا التنبيه ارجع الفضل إلى من سبقه في الاشارة الى هذه النظرية فذكر ان الخليل وسيبويه سبقوه اليها ومن جاء بعدهم اعترف بصحتها ثم يقول : ((فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليها)) [lxxxiii] ، ثم يؤكد مرة اخرى بقوله ((ومن وجد مقالا قال به وإن لم يسبق إليه بغيره فكيف به إذا تبع العلماء فيه وتلاهم على تمثيل معانيه)) [lxxxiv].

وما اخذه عن العلماء الافذاذ لم يقف عنده بل اخذ يتأمل فيه ليجد ما يضيفه عليه فيقول((ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة ووجدت أيضا الفعلى في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو البشكى والجمزى والولقى ...)) [lxxxv] ، وهذه كلها مبنية على ما تحقق لديه من وجود الصلة بين اللفظ والمعنى ، وخلاصة ما قاله فيها :

١. إن الالفاظ التي تدل على معنى التكرار او الحركة والاضطراب في الغالب

تاتي فيها الحروف مكررة او متوالية الحركات ليناسب اللفظ معناه ، وهو ما اشار اليه الخليل وتبناه ابن جني في قوله: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا (صر) وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا (صرصر) ،

واشار الى توالي الحركات في ما حكاه عن سيبويه في المصادر التي جاءت على (فعلان) فهي تاتي للاضطراب والحركة ،(النزوان والنقزان و القفزان) وكلها تدل على السرعة ومثلها (العسلان والرتكان) وهي تدل على السرعة ايضا ومثله الغليان لأنه زعزعة واضطراب ومثله الغثيان لأن النفس تجيش وتثور ، ومثله الخطران واللمعان لأن فيها حركة واضطرابا ومثلها اللهبان والوهجان ،

وتأسيسا على ما سبق نسأل ما الذي حمله كتاب الخصائص من ذلك ونسأل ابن جني ما الجديد الذي جاء به هو ؟

المتتبع لكلام ابن جني السابق يجده قد اضاف على امثلة الخليل المصادر الرباعية المضعفة فهي تأتي للتكرير (الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة) وأضاف على امثلة سيبويه المصادر والصفات على زنة (الفعلى) (البشكى والجمزى والولقى) ،

ومن خلال كلام سيبويه وابن جني يتضح ان سيبويه يربط بين وزن (الفعلان) ومعنى الحركة والاضطراب ، فيوافقه ابن جني ويضرب الامثلة لذلك من الاوصاف والمصادر ولم يكتف بذلك بل قام ابن جني بالنسج على منواله والقياس على كلامه ، فابنية (الفعللة) للتكرير أي ان تكرير الاصوات يصور تكرير المعنى والحدث ، بمعنى اخر ان تكرير الزاي والعين ، والقاف واللام، والصاد و اللام ، والقاف والعين ، والقاف والراء ، في الامثلة التي ساقها له دلالة معنوية ، أي ان تكرارها لم يكن دون جدوى ، فهي اصوات يوحي تكريرها باستمرار الحدث وتكريره اكثر من مرة ، كذلك توالي الحركات على الحروف في مصدر (الفعلى) انما يدل على توالي العمل نفسه دون ابطاء او تراخ.

٢. ومما ظهرت فيه المناسبة واضحة بين اللفظ والمعنى تلك الافعال التي تصدر بحروف زائدة لتدل على معان زائدة عن معنى الفعل الاصلي او مايحمل

الطلب الدال عليه (الالف و السين والتاء) في استسقى و استطعم واستوهب واستمنح و استخرج فافعال هذه الالفاظ سقى و طعم و وهب ومنج وخرج وهي تدل على احداث وقعت وليس فيه دلالة تدل على طلب لها ، و ان هذه اللواصق

عند دخولها على ذلك التركيب الاصلي احدثت معنى اخر فيه من الزيادة على معنى الاصل ، يقول ابن جني : ((فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ثم وردت بعدها الأصول الفاء والعين واللام فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأتي لوقوعه تقدمه ثم وقعت الإجابة إليه فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة وذلك نحو استخرج واستقدم واستوهب واستمنح واستعطى واستدنى)) [lxxxvi].

نجد ابن جني قد لاحظ ان الزيادة الحاصلة في (ف ع ل) زادت من المعنى الذي يدل عليه وهو امر موافق لما قال به علماء العربية ان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى [lxxxvii] ، ونحن نوافق علماء العربية على هذه الفكرة ، لكنا نميل الى تغيير صياغتها لتكون اعم واشمل فليست الزيادة في المبنى هي الوحيدة التي تعطي زيادة في المعنى اذ ربما يكون العكس فيكون النقص في المبنى هو الذي يؤدي زيادة في المعنى ، فنقول : ان كل تغيير في المبنى يحدث تغييرا في المعنى وزيادة ،

و من ذلك ايضا ما جاء على افعوعل كقولهم خشن و اخشوشن وحلا واحلولى وخلق واخلولق ((فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو)) [lxxxviii] ،

و منه ايضا باب فعل وافتعل ، فافتعل اقوى معنى من فعل مثل: قدر واقتدر ومنه قوله تعالى ((اخذ عزيز مقتدر)) [lxxxix] ، وهي اوفق من قادر لأن الموضع موضع تفخيم الامر واظهاره شدة الاخذ ومنه قوله تعالى ((لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)) [xc] ، لأن (كسب الحسنة بالاضافة الى اكتساب السيئة امر

يسير)) [XCI] ، و من ذلك ان يعدل بفعال عن فعيل كقولهم في المبالغة من جميل ووضي ، جمال ووضاء ((فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه))[XCII] ،

و من ذلك ان يعدل بفعال عن فعيل فيكون من باب تكثير اللفظ لتكثير المعنى كقولهم (طوال فهو ابلغ معنى من طويل) [XCIII] ،

كما ان هذه الزيادة كان موقعها في مطلع الكلمة وفي ذلك مناسبة بين اللفظ ومعناه ، فالمعنى الحاصل بسبب الزيادة في الكلمة ، يأتي قبل المعنى الاصلي لها.

وهذه الفكرة ترجع في اصلها لمن سبقه ولذلك يشير بامانة علمية الى ذلك بقوله ((فهذا على سمت الصنعة التي تقدمت في رأى الخليل وسيبويه إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليهـــا)) [XCIV]

ويتابع منهجه في القياس من تكرير عين الفعل في (قطع و غلق وفتح) فانه يدل على تكرير المعنى او تقويته كما في قوله تعالى (وقطعن ايديهن)[XCV] ، أي اكثرن من هذا الفعل وقوله (وغلقت الابواب) [XCVI] ، فهذه مناسبة بين اللفظ والمعنى ، يقول ((فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به وهو تكرير الفعل كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق دليلا على تقطيعه ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة والإشفاق على الحرف المضعف أن يجئ في آخرها وهو مكان الحذف وموضع الإعلال وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل فهذا أيضا من مساوقة الصيغة للمعاني)) [XCVII].

وبراعة ابن جني في التعليل والفلسفة اللغوية التي يخرج بها ما ساقه من حديث في تضعيف عين الفعل مكان الفاء و اللام ، نجدها في قوله : ((ولم يكونوا ليضعفوا الفاء ولا اللام لكراهية التضعيف في أول الكلمة والإشفاق على الحرف المضعف أن يجئ في آخرها وهو مكان الحذف وموضع الإعلال وهم قد أرادوا تحصين الحرف الدال على قوة الفعل)) [XCVIII] فكأن العرب كرهت تضعيف الحرف

الاول واشفقت على الحرف الاخير لأنه مكان مضطرب قد يحذف فيه الحرف في حالة الاعلال ،

وهذا الكلام يدل على مقدرة لغوية في معالجة القضايا اللغوية بشكل منطقي خاضع للتصور العقلي ، الذي لا يخطر على بال المتكلم حين ينطق باللغة،

٣. الالفاظ الدالة على الحدث تظهر فيها المناسبة واضحة ، اذ لكل حدث لفظ يناسبه من ناحية القوة او الضعف ، فيكون اللفظ قويا اذا كان دالا على حدث قوي ويكون ضعيفا اذا دل على حدث ضعيف ،

يوضح ابن جني ذلك بقوله ((فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره من ذلك قولهم خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك))[XCIX] ،

فابن جني يعقد صلة بين أصوات الالفاظ وبين ما تدل عليه من احداث بمحاولة الربط بين دلالة الكلمة وجرس واحد من اصواتها ،

وقد ركز ابن جني على صفات الاصوات التي وضعها في كتابه سر صناعة الاعراب ، ليطبقها في الخصائص على هذه النظرية ، فمن صفات الاصوات ما يظهر لها القوة مثل : الجهر، والشدة ، والاستعلاء ، و الاطباق والاصمات ، ومنها ما يظهر لها الضعف مثل : الهمس، والرخاوة والاستفال ، والانفتاح ، والذلاقة [C]، وهذه الصفات تكاد توصف بها اصوات العربية، وهذه الصفات توجه الكلمة كلها نحو القوة او الضعف ،

ولذلك قالوا ان (خضم) أضعف في اللفظ من (قضم) فاستعملوا الخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، واستعملوا

القضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك ،

وفي تركيز ابن جني على صفات هذه الاصوات لابراز معانيها يقول ((فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث))[CI]،

وحين ننظر الى صفات الخاء والحاء نجد الخاء أقوى (لأنه ليس للحاء من صفات القوة سوى صفة الاصمات ، لذلك استعملوا النضح للماء الضعيف (رش الماء وتسريه ببطء) و النضخ للماء القوي(لشدة فورانه) ، يقول ابن جني : ((فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه))[CII] ،

وذكر ابن جني امثلة اخرى في مناسبة الالفاظ لمعانيها معتمدا على صفات هذه الاصوات من ذلك :

((القد طولا عرضا وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته والدال المماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولا))[CIII] ،

فالتاء اضعف من الطاء لأن الطاء من حروف الاستعلاء والاطباق وليست التاء منها ،

ومن ذلك قولهم ((الوسيلة والوصيلة والصاد كما ترى أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستعلاء والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسته له وكونه في أكثر الأحوال بعضا له كاتصال الأعضاء بالإنسان وهي أبعاضه ونحو ذلك والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءا أو كالجزء من المتوسل إليه وهذا واضح فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى والسين لضعفها للمعنى الأضعف))[CIV] ،

وقد ذهب ابن جني بعيدا عن ذلك في خلق مناسبة لتجاور حروف هذه الالفاظ الدالة على معاني القوة والضعف ، اذ نجده يبرر لتجاور هذه الحروف اذ يرى ان الحرف المناسب للحدث يضعونه اولا ثم يوسطون الحرف المناسب

لأوسط الحدث ويختمون مايضاهي اخره يقول ((وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب)) [CV] ،

تبنى ابن جني احداث المعنى على ترتيب اصوات الحروف المشكلة لهذا المعنى، فكل معنى يتقابل مع الصوت ، وتتابع أحداث الفعل تبعا لتوالي الاصوات مثل : ((بحث فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض)) [CVI] ، وهذه اول مرحلة من مراحل البحث عن شيء قويلت بالباء التي تحكي هذا الفعل بصوتها او بجرسها ((والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض)) وهذه المرحلة الثانية من مراحل البحث التي تقابلها (الحاء) التي تصور بجرسها حركة اليد اثناء غوصها في التراب ، اما المرحلة الثالثة فهي تحريك التراب وتفريقه هنا وهناك لابعاده فتعبر عنها الثاء في قوله ((والثاء للنفث والبث للتراب وهذا أمر تراه محسوسا محصلا فأي شبهة تبقى بعده أم أي شك يعرض على مثله)) [CVII] ،

ومن ذلك ايضا : شد الحبل ، فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين ولا سيما وهي مدغمة فهو أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذي أريد بها ويقال شد وهو يشد فأما الشدة في الأمر فإنها مستعارة من شد الحبل ونحوه لضرب من الاتساع والمبالغة على حد ما نقول فيما يشبه بغيره لتقوية أمره المراد به [CVIII] ،

فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيته من بابه وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله أعطاك مقادته وأركبك ذروته وجلا عليك بهجاته ومحاسنه وان أنت تناكرته وقلت هذا أمر منتشر ومذهب صعب موعر حرمت نفسك لذته وسددت عليها باب الحظوة به نعم ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى وأصنع ،

وكل ما قاله ابن جني ليس وليد الصدفة بل هو أمر واقع ومقصود دلت

عليها ((حكمة العرب التي تشهد بها العقول وتتناصر اليها اغراض ذوي التحصيل ، فما ورد على وجه يقبله القياس وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف حمل عليها ونسبت الصنعة فيه إليها وما تجاوز ذلك فخفى لم توءس النفس منه ووكل إلى مصادقة النظر فيه وكان الأحرى به أن يتهم الإنسان نظره ولا يخف إلى ادعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه وأحصف بالحكمة أسبابه))[CIX] ، وهكذا في تصوره للامر وثقته في تعليله تجعله يستبعد كل شك ، وينفي أي شبه عنه ، ومنهج ابن جني . الباحث العلمي . دعاه الى الاجابة عن سؤال ربما يخطر لذهن الباحث او المتعلم وهو قوله ((فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر))[CX]

. تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني

يقوم هذا الموضع على تقارب الالفاظ نتيجة تقارب المعاني ، بمعنى اخر ان المعاني المتقاربة يلزمها الفاظ واصوات متقاربة ، و ان الاصوات اذا اتفقت دخلا في تقارب المعنى ،

ونبه ابن جني على ان ((هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غفلا مسهوا عنه وهو على أضرب))[CXI] ،

منها ما يتقارب فيه الأصلان الثلاثيان ، ومنها ما يتقارب فيه الثلاثي والرباعي ومنها ما يتقارب فيه الرباعي والخماسي ،

ويبدو ان ما ذهب اليه ابن جني من تقارب الالفاظ لتقارب المعاني قد يؤدي الى القول بان هذه المعاني في الاصل كانت عامة ثم تفرعت الى معان جزئية ، وكانت قليلة ثم كثرت ، شأنها في ذلك شأن الالفاظ الدالة عليها ، وهو مذهب يوافق مذهب المحدثين اذ يجدون ان لغات العالم يصيبها ما يسمى

بتخصيص الدالة وهو مظهر من مظاهر التطور في الالفاظ ، وفيه تستعمل

الالفاظ بدلالتها العامة استعمالا خاصا وبشياع هذا الاستعمال وذياعه بين ابناء البيئة اللغوية تكون اللفظة قد تطورت من العام الى الخاص [CXII] ،

اما ما تقارب فيه الرباعي والخماسي ، فقد ذكر انه قليل لأن هذين الاصلين يقلان في اللغة، الا انه ورد عنهم قولهم ((ضبغطى وضبغطرى وقولهم أيضا: قد دردبت والشيخ دردبيس فدردبت رباعي و دردبيس خماسي)) [CXIII] ،

ذكر ابن جني انه يجوز ان يكون قد ((بنى من دردبيس فعلا فحذف خامسه كما أنه لو بنى من سفرجل فعلا عن ضرورة لقال سفرج)) [CXIV] ،

ومثل للأصلين الثلاثيين بقوله ((شيء رخود ورخود فهما كما ترى شديدا التداخل لفظا وكذلك هما معنى)) [CXV] ،الا ان الاصل في الاول (رخ و) والثاني (رخ د) ومنه قولهم :رجل ضياط وضيطار والاول من (ض ي ط) والثاني من (ظ ط ر) ومنه قولهم : ولوقة وألوفة وينجوج وألنجوج [CXVI] ،

ومثل لتداخل الثلاثي والرباعي بقولهم سبط وسبطر ، و دمث ودمثر ، وحبج وحبجر [CXVII]،

تحدث ابن جني على الابدال الحاصل بين الألفاظ المتقاربة المعنى في تصاقب الالفاظ لتصقاب المعاني ، والظاهر ان الحديث عنها يكشف لنا ان هذه المسألة نسبية لا يمكن الاخذ بها على اطلاقها ،وحديث ابن جني عليها كما يأتي:

١. الاختلاف في حرف واحد

ان المعاني المتقاربة يلزمها ألفاظ واصوات متقاربة مثل ابن جني لذلك :

(أز وهز)

فكلاهما من الحلق وقد قالت العرب أز الشيء وهزه ، قال تعالى : (الم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا) [CXVIII] والمعنى انها تزعجهم وتقلقهم فهو في معنى تهزهم هزا والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء [CXIX] ، والمعنى الذي يؤديه الازأعظم في النفوس من الهز لآن هذا الاخير قد يتناول ما لا قيمة له

كالجذع وساق الشجرة ، وقد ذكرت المعاجم ان (الهز) : تحريك الشيءِ كما تهز القناة فتضطرب و تهتز، والعرب تقول: هزه و هز به إذا حركه[CXX]،

و(الأز) يدل على التحرك والتحريك والإزعاج[CXXI] ،

فالتقارب المخرجي بين الصوتين هو المسوغ للابدال بينهما ،

ومنه ايضا :

((العسف والأسف)) فمخرج العين والهمزة واحد وهو الذي سوغ الابدال هنا وابن جنى يرى أن الأسف يعسف النفس وينال منها والهمزة أقوى من العين كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين[CXXII] ،

وقد ذكرت المعاجم ان العسف: السير بغير هداية والأخذ على غير الطريق، وكذلك التعسف و الاعتِساف، و العسف: ركوب المفازةِ وقطعها بغير قصد ولا هِداية ولا توخي صوب ولا طريق مسلوك و التعسيف: السير على غير علم ولا أثرٍ[CXXIII] ،

والأسف : أشد الحزن ، و اسف عليه اسفا أي غضب ،[CXXIV] ، والظاهر ان التقارب في معنى (العسف والاسف) بعيد في رأينا القاصر لأن العسف في الاستعمال اللغوي غير الاسف والظاهر ان ابن جني تكلف في ذلك ليحقق نظريته،

((علم عرم)) أصلان مخرجهما واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا وهما عند ابن جني متقاربان في المعنى ، فكان كل واحد منهما علما لصاحبه[CXXV] ، وعند العودة الى معاجم اللغة نجد ان العلم مصدر علمت شفته أعلِمها علما، والشفة علماء، و العلم: الشق في الشفة العليا، والمرأة علماء،[CXXVI] ، والعلم: الجبل الطويل[CXXVII] ،

والعلم: ما ينصب في الطريق، ليكون علامة يهتدى بها، شبه الميل والعلامة والمعلم، والعلم: ما جعلته علما للشيء[CXXVIII] ،

والعرم : واحدها عرمة ، وعرمت العظم أعرمه وأعرمه عرما ، إذا عرقته ،

وكذلك عرمت الابل الشجر : نالت منه ، والعرام بالضم : العراق من العظم والشجر ، وصبى عارم بين العرام بالضم ، أي شرس [cxxix] وهو يدل على شِدة وحدة، يقال: عرم الإنسان يعرم عرامة، وهو عارم [cxxx] ،

الظاهر ان التقارب بينهما في المعنى تكلفه ابن جني في قوله ((تركيب ع ل م في العلامة والعلم وقالوا مع ذلك بيضة عرماء أعرم إذا كان فيهما سواد وبياض وإذا وقع ذلك بأن أحد اللونين من صاحبه فكان كل واحد منهما علما لصاحبه)) [cxxxi] ، وهذه العلامة التي ربطها ابن جني بين السواد والبياض لتكون احداهما علامة للاخرى تقع في المنحصر فاذا كان السواد مثلا والبياض فقط كان الأبيض علما للاسود وكذلك العكس ، لكن في غير المنحصر مثلا لا يمكن القول بذلك ، هذا من جهة ، كما ان معاجم اللغة كشفت لنا حقيقة معنى اللفظين من جهة اخرى اما التقارب اللفظي بينهما فهو في كونهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا ،

((حمس و حبس)) التقارب بينهما ان الميم والباء حرفان شفويان ، و دلالة كل منها في معاجم اللغة تظهر تكلف ابن جني في ايجاد الرابط بينهما اذ يرى ان الشيئين اذا حبس احدهما صاحبه تمانعا وتعازا ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما [cxxxii] ،

جاء في اللسان : حمِس الشر: اشتد، و حمِس بالشيء: علِق به، [cxxxiii] ، قال ابن فارس الحاء والميم والسين أصل واحد يدل على الشدة، [cxxxiv] ، و الأحمس: المكان الصلب [cxxxv] والحمس: الأمكِنة الصلبة، جمع أحمس [cxxxvi] ،

و الحبس: المنع، كالمحبسِ، كمقعدٍ، حبسه يحبِسه، [cxxxvii] ، قال ابن فارس: يقال حبستُه حبسا، والحبس: ما وقِف، يقال أحبست فرسا في سبيل الله، والحبِس: مصنعة للماء، والجمع أحباس، [cxxxviii] ،

((علب و علم)) التقارب بينهما في اللفظ هو ان الباء اخت الميم ،وكل منهما يدل على أثر في الشيء يميزه عن غيره ، جاء في اللسان : العلَب: المكان الغليظ الشديد الذي لا ينبِت البتة، [cxxxix] ، وعلبت الشيء، إذا أثرت فيه، ومن

الباب العِلاب: وسم في طول العنق[cxl] ،وعلب: الأثر، والحزّ، كالتعليبِ، والمكان الغليظ[cxli] ، والعلم: ما ينصب في الطريق، ليكون علامة يهتدى بها، شبه الميل والعلامة والمعلم، والعلم: ما جعلته علما للشيء[cxlii] ، وهذا من الأمور النسبية كما قلنا في وجود الرابط في معنى اللفظين ،

((قرت و قرد)) الدال اخت التاء ، اذ هما من مخرج واحد هو طرف اللسان واصول الثنايا العليا ، وقد يجمعهما معنى التجمع واللصوق ، جاء في معاجم اللغة : قرِت وجه الرجل: تغير من حزن، وأصل ذلك من قرت الدم، إذا يبِس بين الجلد واللحم، وهو دم قارت، وقرِت الجلد، إذا ضرِب فاسود،[cxliii] ،

وقرت الدم يقرت قروتا، إذا يبِس بعضه على بعض[cxliv] والقرد، بالتحريك: ما تمعط من الوبرِ والصوفِ وتلبد، وقيل: هو نفاية الصوف خاصة ثم استعمل فيما سواه من الوبر[cxlv] ، وقال ابن فارس : القاف والراء والدال أصل صحيح يدل على تجمعٍ في شيءٍ مع تقطع، من ذلك السحاب القرِد: المتقطع في أقطار السماء يركب بعضه بعضا، والصوف القرِد: المتداخِل بعضه في بعض[cxlvi] ، يظهر لنا هذا العرض ان بين المعنيين رابط من وجه واختلاف في اخر ، اذ لا تستعمل كلمة مكان الاخرى فلا يقال قرد الدم ولا يقال قرت الصوف.

((علز و علص)) الزاي و الصاد من مخرج واحد هو طرف اللسان واطراف الثنايا السفلى اضافة الى انهما من حروف الصفير ، وهما قد يتفقان في الاستعمال ذكرت ذلك معاجم اللغة ، جاء في لسان العرب : العِلوص: التخمة والبشم، وقيل: هو الوجع الذي يقال له اللوى قال ابن بري: وكذلك العلص، قال: و العِلوص وجع البطن، مثل العِلوزِ، وقال ابن الأعرابي: العِلوص الوجع، والعِلوز الموت الوحي، ويكون العِلوز اللوى، ويقال: رجل عِلوص به اللوى[cxlvii] .

((غرف و غرب)) الباء اخت الفاء اذ هما شفويان لذلك كان التقارب بينهما في اللفظ اما التقارب بينهما في المعنى ، فيقول ابن جني : ((الغرب : الدلو العظيمة ، ويغرف بها من الماء))[cxlviii] وربما يكون في هذا شيء من التكلف ، اذ ليس الغرب خاصا بالدلو ، وانما غرب كل شيء حده وغارب كل شيء

اعلاه وهكذا [cxiix].

الغين والراء والفاء أصل صحيح، إلا أن كلِمه لا تنقاس، بل تتباين، فالغرف: مصدر غرفت الماء وغيره أغرِفه غرفا،،والغرفة: اسم ما يغرف؛ والغريف: الأجمة، والجمع غرف، قال: والغرفة: العلية، ويقال: غرف ناصية فرسِهِ، إذا استأصلها جزا، [cl].

والغرب أعظم من الدلوِ، وهو دلو تام، وعدده أغرب، وجمعه غروب، واستحالتِ الدلو غربا أي عظمت بعدها ما كانت دلية، [cli] ،

والغرب: الدلو العظيمة، والغربانِ من العين: مقدمِها ومؤخرِها [clii] ،

٢. التقارب في حرفين بين كلمتين

من ذلك :

((سحل و صهل)) يجمعهما معنى الصوت ، فالسحيل: نهاق الحمار، وكذلك السحال، ولذلك يسمى الحمِار مسحلا [cliii] ، و الصهل: حِدة الصوت مع بحح كالصحل، يقال: في صوته صهل وصحل، وهو بحة في الصوت، و الصهِيل للخيل، [cliv] ، والسين اخت الصاد فهما من مخرج واحد، كما ان الحاء أخت الهاء فهما حرفان حلقيان ،

((زحر و سحل)) الرابط بينهما هو الصوت ايضا ، وقد ذكرنا معنى (س ح ل) قبل قليل ، و معنى (زحر) الزحِير والزحار والزحارة وهو أخراج الصوتِ أو النفسِ بأنينٍ عند عملٍ أو شدةٍ ؛ ويقال للمرأة إذا ولدت ولدا زحرت به تزحرت عنه [clv] ، والتقارب اللفظي بينهما حاصل في كون السين اخت الزاي لأنها من حروف الصفير ومن مخرج واحد واللام اخت الراء ومخرجهما من طرف اللسان مع اللثة العليا،

((جلف و جرم)) المعنى الجامع لهما هو القطع ، قال ابن فارس : الجيم واللام والفاء أصل واحد يدل على القطع وعلى القشر، يقال جلف الشيء جلفا، إذا استأصله، وهو أشد من الجرف، ورجل مجلف جلفه الدهر: أتى على ماله [clvi]، وأما (جرم) فهو القطع ايضا، جرمه يجرِمه جرما: قطعه، وشجرة جرِمة:

مقطوعة،[clvii] ، واما التقارب في اللفظ ، فلأن اللام اخت الراء والفاء اخت الميم، كما تقدم.

٣. التقارب بين كلمتين في حروفها الثلاثة :

((عصر و أزل)) وهما متقاربان في المعنى ، تجمعهما دلالة الحبس والمنع ، جاء في اللسان :العصر الحبس[clviii] ، و الأزل: الضيق والشدة، و الأزل: الحبس [clix] ، وقال ابن فارس الهمزة والزاء واللام فأصلان: الضيق، والكذِب، قال الخليل: الأزل الشدة، تقول هم في أزلٍ مِن العيش إذا كانوا في سنةٍ أو بلوى [clx] ، وأما التقارب فَي اللفظ جاء من تقارب العين والهمزة في المخرج اذ هما حلقيان والصادت اخت الزاي و كذلك الراء اخت اللام.

((عصب و أزم)) متقاربان في المعنى اللغوي يجمعهما معنى الشدة ، فـ(عصب) يدل على ربط شيءٍ بشيءٍ، مستطيلا أو مستديرا، ثم يفرع ذلك فروعا [clxi] ، والعصب: الطي، واللي، والشد [clxii] ، و الأزم: شدة العض بالفمِ كله، وقيل بالأنياب، والأنياب هي الأوازِم، وقيل: هو أن يعضه ثم يكرر عليه ولا يرسِله، وقيل: هو أن يقبِض عليه بفيه [clxiii] ، وهنا ان الهمزة اخت العين والزاي اخت الصاد والميم اخت الراء.

((غدر و ختل)) يربطهما معنى الخداع ونقض الوفاء ، جاء في اللسان : الغدر ضد الوفاء بالعهد، وقيل: الغدر ترك الوفاء ؛ تقول: غدر إذا نقض العهد، ورجل غادرٍ و غدار و غدِير [clxiv] ، والختل: تخادع عن غفلةٍ، ختله يختله و يختِله ختلا و ختلانا و خاتله: خدعه عن غفلة ، و التخاتل: التخادع [clxv] ، والغين اخت الخاء فهما من الحلق والدال اخت التاء والراء اخت اللام ،

((زأر وصهل)) الرابط بينهما هو الصوت اذ كل منهما يدل على صوت ، فالأول : زأر الأسد بالفتح يزئِر ويزأر زأرا وزئِيرا صاح وغضب و الزئير صوت الأسد في صدره [clxvi] ، و الصهل: حِدة الصوت مع بحح كالصحل، يقال: في صوته صهل وصحل، وهو بحة في الصوت، و الصهِيل للخيل، [clxvii] ، والصاد اخت الزاي والهاء اخت الهمزة واللام اخت الراء فتقارب اللفظان.

٤. التقارب بين اكثر من كلمتين:

جرف و جلف و جنف : ذكرت لها معجمات اللغة معاني نلمح فيها وجود تقارب في المعنى وهو الكسح والقشر ، جاء في لسان العرب : الجرف: هو أخذ الشيءِ كله هبشا، يقال جرفت الشيء جرفا، إذا ذهبت به كله، وسيف جراف يذهب كل شيء؛ والجرف المكان يأكله السيل، وجرف الدهر ماله: اجتاحه [clxviii] ،

و الجلف القشر، جلف الشيء يجلفه جلفا: قشره، و الجلفة: ما جلفت منه، و الجلف أجفى من الجرفِ وأشد استئصالا ، تقول: جلفت ظفره عن إصبعه، [clxix] ،

و الجنف : الميل والميل، يقال جنِف إذا عدل وجار ، ورجل أجنف إذا كان في خلقهِ ميل، ويقال لا يكون ذلك إلا في الطول والانحناء [clxx] ،

ونبه ابن جني على ما في تقارب الاصلين السابقين بقوله : ((و اذا جلفت الشيء او جرفته فقد أملته عما كان عليه)) [clxxi] ،

وحروف (الراء واللام والنون) اصوات الذلاقة مخرجها من طرف اللسان مع اللثة العليا،

يبدو ان ما ذهب اليه ابن جني في تقارب المعاني لتقارب الالفاظ ، يعود الى ان هذه المعاني في الاصل كانت عامة ثم تفرعت الى معان جزئية ، وهو ما يسمى بعلم اللغة الحديث بتخصيص الدلالة ، [clxxii] .

الهوامش

(١) يتضح لك ذلك في (العين) للخليل و (الكتاب) لسيبويه

(٢) وقف ابن فارس على خصائص العربية وميزاتها في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)

(٣) المزهر ١/٤٧

(٤) المزهر ١/٤٨

(٥) الخصائص٢/٦٧

(٦)الخصائص ١/٤٤

(٧) الخصائص ١٦٥/٢ ،

(٨) الخصائص ١٦٤/٢ ،

(٩) الخصائص ٦٦/١،

(١٠) الخصائص ١٦٤/٢ ،

(١١) الخصائص ١٤٦/٢

(١٢) الخصائص ١٤٦/٢

(١٣) الخصائص ١١٣/٢

(١٤) اللسان (خلق)

(١٥) المقاييس (خلق)

(١٦)اللسان (طبع) وينظر : المقاييس (طبع) والقاموس المحيط (طبع)،

(١٧) اللسان (نحت) وينظر : المقاييس (نحت) والقاموس المحيط (نحت)

(١٨)اللسان (غرز) وينظر : المقاييس (غرز) والقاموس المحيط (غرز)

(١٩) القاموس (نقب) وينظر : العين (نقب)

(٢٠) اللسان (ضرب)

(٢١)اللسان (ضرب) وينظر : المقاييس (ضرب) والقاموس المحيط (ضرب)

(٢٢) العين(ضرب)

(٢٣) اللسان (نحز)

(٢٤)اللسان (نحز) وينظر : المقاييس (نحز) والقاموس المحيط (نحز)

(٢٥) اللسان (سجا)

(٢٦)اللسان (سجا) وينظر : المقاييس (سجا) والقاموس المحيط (سجا)

(٢٧)العين (طرق)

(٢٨) اللسان (سجا)

(٢٩) الصحاح (سجا) وينظر : المقاييس (سجا)

(٣٠) الخصائص ١١٦/٢

(٣١) العين(سلق)

(٣٢) الصحاح (سلق)

(٣٣) الاحزاب ١٩

(٣٤) الخصائص ١١٧/٢

(٣٥) الخصائص ١١٧/٢

(٣٦) القاموس (نقب)

(٣٧) البقرة ٢٦٠

(٣٨) الصحاح (صور)

(٣٩) الخصائص ١١٨/٢

(٤٠) الصحاح (صور)

(٤١) المقاييس (صور)

(٤٢) الخصائص ١١٩/٢

(٤٣) الصحاح (صبو)

(٤٤) المقاييس (طفل)

(٤٥) اللسان (غلم)

(٤٦) اللسان (جرا)

(٤٧) الخصائص ١١٩/٢

(٤٨) النحل٦

(٤٩) العين (جمل)

(٥٠) المقاييس(جمل)

(٥١) اللسان(نوق)

(٥٢) المقاييس(نوق)

(٥٣) اللسان(دبج) وينظر : القاموس (دبج)

(٥٤) اللسان(وشي)

(٥٥) المقاييس(وشي)

(٥٦) الخصائص ١٢٢/٢

(٥٧) اللسان(فضض)

(٥٨) اللسان(فضض)

(٥٩) اللسان(لجن)

(٦٠) اللسان (لجن) وينظر : الخصائص ١٢٣/٢

(٦١) المقاييس(ذهب)

(٦٢) الخصائص ١٢٤/٢،

(٦٣) المقاييس(ذهب)

(٦٤) المقاييس(تبر)

(٦٥) الأعراف ١٣٩

(٦٦) المقاييس(تبر)

(٦٧) القاموس المحيط (تبر)

(٦٨) الخصائص ١٢٥/٢

(٦٩) الخصائص ١٢٥/٢

(٧٠) الخصائص ١٢١/٢

(٧١) الخصائص ١٣٣/٢

(٧٢) الخصائص ١٥٢/٢ينظر : العين (صر) ٨١/٧ ، والكتاب ٢٤/١

(٧٣) الخصائص ١٥٢/٢

(٧٤) الخصائص ١٥٢/٢

(٧٥) الخصائص ١٥٥/٢

(٧٦) الخصائص ١٥٢/٢-١٥٣،

(٧٧) الخصائص ١٥٤/٢

(٧٨) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ٨٣/١

(٧٩) الخصائص ٢٦٤/٢ ،

(٨٠) القمر ٤٢ ،

(٨١) البقرة ٢٨٦،

(٨٢) الخصائص٣/٢٦٥

(٨٣)الخصائص٣/٢٦٦

(٨٤)الخصائص٣/٢٦٧

(٨٥) الخصائص ٢/١٥٤

(٨٦) يوسف٣١

(٨٧) يوسف٢٣

(٨٨) الخصائص ٢/١٥٥

(٨٩) الخصائص ٢/١٥٥

(٩٠) الخصائص ٢/١٥٧-٢/١٥٨

(٩١) فقه اللغة . المبارك . ٨٠-٨٧،

(٩٢) الخصائص ٢/١٥٨ ،

(٩٣) الخصائص ٢/١٥٨

(٩٤) الخصائص ٢/١٥٨

(٩٥) الخصائص ٢/١٦٠

(٩٦) الخصائص٢/١٦٣

(٩٧) الخصائص ٢/١٦١

(٩٨) الخصائص٢/١٦٣ الصحل : البحة في الصوت

(٩٩) الخصائص ٢/١٦٤

(١٠٠) الخصائص ٢/١٦٥

(١٠١) الخصائص ٢/١٦٥

(١٠٢) الخصائص ٢/١٤٥

(١٠٣) علم الدلالة . احمد مختار عمر. ٢٤٣ ،

(١٠٤) الخصائص٢/٥٥،

(١٠٥) الخصائص٢/٥٥ ،

(١٠٦)الخصائص٢/٥٥ ،

(١٠٧)الخصائص٢/٥٥ ،

(١٠٨) الخصائص ٢/٤٩

(١٠٩) مريم ٨٣ ،

(١١٠) الخصائص ٢/١٤٦

(١١١) اللسان (هزز)

(١١٢) المقاييس (ازز)

(١١٣) الخصائص ٢/١٤٦ ،

(١١٤) اللسان(عسف) ،

(١١٥) المقاييس (أسف) وينظر : الصحاح (أسف)

(١١٦) الخصائص ٢/١٤٧

(١١٧) اللسان (علم)

(١١٨) العين(علم)

(١١٩) العين(علم)

(١٢٠) الصحاح (عرم)

(١٢١) المقاييس(عرم)

(١٢٢) الخصائص ٢/١٤٧،

(١٢٣) الخصائص ٢/١٤٧،

(١٢٤) اللسان (حمس)

(١٢٥) المقاييس(حمس)

(١٢٦) الصحاح(حمس)

(١٢٧) القاموس (حمس)

(١٢٨) القاموس (حبس)

(١٢٩) المقاييس(حبس)

(١٣٠) اللسان (علب)

(١٣١) المقاييس(علب)

(١٢٣) القاموس(علب)

(١٣٣) العين(علم)

(١٣٤) المقاييس(قرت)

(١٣٥) الصحاح(قرت)

(١٣٦) اللسان(قرد)

(١٣٧) المقاييس(قرد)

(١٣٨) اللسان الصحاح المقاييس

(١٣٩) الخصائص ١٤٩/٢،

(١٤٠) اللسان (غرب)

(١٤١) المقاييس(غرف)

(١٤٢) العين

(١٤٣) المقاييس

(١٤٤) المقاييس(سحل)

(١٤٥) اللسان(صهل)

(١٤٦) العين (زحر) وينظر : اللسان(زحر)

(١٤٧) المقاييس(جلف)

(١٤٨) اللسان (جرم)وينظر : العين (جرم) المقاييس (جرم) القاموس(جرم)

(١٤٩) اللسان (عصر)

(١٥٠) اللسان (عصر)

(١٥١) المقاييس (أزل) وينظر : العين(أزل)

(١٥٢) المقاييس(عصب)

(١٥٣) اللسان (عصب) القاموس(عصب)

(١٥٤) اللسان (ازم)وينظر : المقاييس(ازم)

(١٥٥) اللسان (غدر) وينظر : المقاييس(غدر)

(١٥٦) اللسان (ختل)وينظر : المقاييس(ختل)

(٥٧[1]) اللسان (زأر) وينظر : العين (زأر)المقاييس (زأر)الصحاح(زأر)

(٥٨[1]) اللسان(صهل) والمقاييس (صهل)

(٥٩[1]) اللسان (جلف)

(٦٠[1]) اللسان (جلف)وينظر : العين(جلف)

(٦١[1]) المقاييس(جنف)

(٦٢[1]) الخصائص ١٤٧/٢

(٦٣[1]) علم الدلالة . احمد مختار عمر : ٢٤٥

المصـــــادر

١ . القرآن الكريم

٢ . الخصائص ، ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠ ،

٣ . شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاسترابادي ، تحقيق : محمد نور الحسن ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٧٥ ،

٤ . الصحاح . تاج اللغة وصحاح العربية . للجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي ، مصر ، لا ط ، لات ،

٥ . علم الدلالة . احمد مختار عمر . ط١ ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٨٢،

٦ . العين ، الفراهيدي ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ ،

٧ . فقه اللغة ، عبد الحسين المبارك ، مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٦،

٨ . القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر ١٩٥٢ ،

٩ . الكتاب ، سيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، الخانجي ، مصر ١٩٨٨،

١٠ . لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت لاط ، لا ت ،

١١. المزهر في علوم اللغة وانواعها ، للسيوطي ، تحقيق : احمد جاد المولى وزميليه، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، مصر ، لاط ، لات ،
١٢. مقاييس اللغة ، احمد بن فارس ، تحقيق: محمد عبد السلام هارون ، مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ١٩٧٢،